

العنوان:	السيرة النبوية بين أغلاط المؤرخين وافتراءات المستشرقين
المصدر:	مجلة الدراسات العربية
الناشر:	جامعة المنيا - كلية دار العلوم
المؤلف الرئيسي:	عيسى، هاشم عبدالراضي محمد
المجلد/العدد:	ع 11, مج1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
الشهر:	يناير
الصفحات:	343 - 381
رقم MD:	193889
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الهوية الاسلامية، السيرة النبوية، تجديد البحث التاريخي، اعادة كتابة التاريخ، التاريخ الاسلامي، الامة الاسلامية، العولمة، افتراءات المستشرقين، دفع المطاعن، مؤرخو السيرة، الحضارة الاسلامية، الحضارة الغربية، صراع الحضارات
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/193889



السيرة النبوية بين أغلاط المؤرِّخين وافتراءات المستشرقين

د/ هاشم عبد الراضي محمد عيسى
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد
بجامعة الإمارات، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

مقـدمـة :

قـد يكـون مـن الضروري – في مستهل هذه الورقة– أن ننبه إلى أهمية التجديد في البحث التاريخي، وما له من دور ذي أهمية في تأصيل الهوية، في زمـن توشك أن تتماع فيه الهويات، وتذوب في تيار العولمة الذي يستهدف محو الهويـات الخاصة لكل أمة، لاسيما الأمة الإسلامية، التي لم تشهد البشرية قاطبة حضارة قوية قادرة على الصمود والتحدي، سوى حضارة الإسلام.

ولاشك أن الكتابة التاريخية وثيقة الصلة بالتطورات الفكرية العامة لكل أمة، تـتأثر بها وتؤثر فيها، إذ إن التاريخ يفترض فيه أن يكون متصلاً ببناء مجتمعه، شـأنه شأن أي حقل من حقول المعرفة. لذا أصبح من الضروري أن تعيد الأمة الإسـلامية قـراءة تاريخهـا في ضوء التطورات العامة والتطلعات المستقبلية. فالـنظرة إلى التاريخ وإلى المشاكل التي تبحث فيه قد تتغير من فترة إلى أخرى علـى ضوء ذلك. ومن هنا نؤكد مصطلح (قراءة التاريخ) [١]. لذلك نرى أنه من الضروري أن يعاد صياغة تاريخ الأمة الإسلامية، لاسيما في حقبة صدر الإسلام التـي تعـد نموذجـاً مثالياً للأجيال المتعاقبة، وذلك من أجل أن يُقرأ هذا التاريخ قراءة تمحيصية متأنية في إطار صياغته الجديدة.

وما من شك في أن موضوع المؤتمر – الذي أتشرف بعرض ورقتي فيه – يأتـي مواكـبا لظـروف تعيشـها الأمة الإسلامية، وتتشوف نفوس شعوبها إلى

الوقوف على أبعاد هذه الظروف الراهنة (ليس عسكرياً فقط)، ولكن عقدياً (أيديولوجياً) وتاريخياً وسياسياً.

فها هي الألفية الثانية قد انصرمت بما فيها من أحداث ووقائع كان لها دور كبير وفعّال في تغيير مجرى التاريخ والتحكم في تحولاته، ومصائر البشر فيه ، واستقبل العالم منذ سنوات حقبة جديدة تبدو الأديان والأفكار فيها قوة فاعلة في كل مجريات الأحداث العالمية. وتعود – كما كانت يوماً – أكثر فاعلية في التاريخ عامة، وفي تاريخ صراع القوى بصفة خاصة. ولا أحبذ أن أقول: صدام أو صراع الحضارات. إذ إن الواقع – دونما انحياز عاطفي – يؤكد أن البشرية لم تشهد حضارة قوية قادرة على الصمود والتحدي، سوى حضارة الإسلام، وليست حضارة المسلمين، التي ربما وهنت وخارت قواها أمام معاول شراسة الانحياز والتسلط والهيمنة، عندما عجز أصحابها عن النهوض من كبوتهم، واستسلموا لعقلية الوهن، فراحت أمواج العولمة تنخر في عظامها.

أما حضارة الإسلام، فهي وحدها القادرة على مواجهة العواصف والأعاصير، لأنها ترتكز على دعائم قوية " أصلها ثابت وفرعها في السماء". أهمها: العقيدة (التوحيد)، واللغة العربية ، والتسامح والمساواة.

وقد يكون عجيباً أن استهل ورقتي بالحديث عن حضارة الإسلام وصدامها مع الآخر، وأنا بين يدي الحديث عن **السيرة النبوية** . ولكن ينحسر العجب وربما يزول بالكلية حينما ندركُ في سهولة ويُسر أن **الاستشراق** (الذي يحرص البعض على أن ينافح عنه بشدة) استهدف بعضه تقويض أركان هذه الحضارة، والعمل على محوها إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وذلك من خلال هدم الركائز التي أشرنا إليها، ولم يكن ذلك عسيراً عليهم... إذ إن ما فعله البعض بالسيرة النبوية المطهرة لكاف لتحقيق الكثير مما يتطلعون إليه، وإن حاولوا إخفاء جريمتهم الكبرى بأوراق توت يابسة، انطلت بكل أسف أسيف على بعضنا، فراح يشدو

مدحـــاً بمـــا قدمته حركة الاستشراق من خدمات – في ظنه – للتراث الإسلامي مـــتجاهلاً، سهواً وعمداً ما فعلوه بسيرة النبي (ﷺ) . التي يُعتبر المساسُ والعبث بهـــا تغيـــيراً وتحريفاً ، بل وهدماً لأصل من أصول الإسلام. وفتات هذا العبث وذلـــك الـــتحريف، أكثر جسامة، وأعظم فداحة وخطراً على الأمة الإسلامية من أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي قلبت الأمور رأساً على عقب.

ولا يخفـــى علينـــا أنه ما كان يمكن للاستشراق أن يسعى ويستهدف إيقاف التأثير الإسلامي وامتداد دعوته في العالم الغربي، بل والعمل – قدر الاستطاعة– على محاولة تنصير عدد من المسلمين أقول: ما كان يمكن أن يحدث هذا (حسب أوهـــام المستشـــرقين) إلا مـــن خلال تقديم صورة كريهة ومشوهة عن الإسلام ورســـوله (ﷺ) وســـيرته. فيضحى تشويه صورة المسلمين أمراً سهلاً بعد ذلك.. وهو ما بدأ الغرب يجني ثماره اليوم ، عندما نجح إلى حد كبير في وسم الإسلام بالـــتطرف، وجعله مرادفاً للإرهاب.. وزاد من نجاحه أن عدداً من أبناء الإسلام أنفســـهم، أخذوا يروجون هذه الأراجيف جهلاً، أو تملقاً للقطب الأوحد . وتمسكاً بأهداب عروش واهية، وممالك فانية.

وقـــد يكون من المفيد أن أقف أمام أراجيف وانحرافات بعض المستشرقين حـــول بعض قضايا السيرة النبوية ، لما تمثله هذه الانحرافات من خطر يؤثر في رســـم وتشـــكيل صورة الإسلام في عقلية الغرب. هذه الرؤية الاستشراقية تجاه النبـــي (ﷺ) ودعوتـــه التي بدأت في التكون منذ احتكاك المسلمين بالنصارى في الأندلـــس. لاســـيما أن جل الرؤى الاستشراقية تكاد تتفق – على مر العصور – على أن الإسلام تركيب ملفق من المسيحية واليهودية والمجوسية.

ومثل هذا البناء الاستشراقي الخاطئ جاء – في الأساس – معبراً عن موقف أيديولوجـــي اتخذ من الإسلام عدواً لدوداً للحضارة الغربية النصرانية؛ لذلك فإن المستشرق حينما يكتب عن الإسلام أو عن الرسول (محمد) (ﷺ) ، فإنه لا يكتب

متوخياً الحقائق لإثباتها، وإنما يكتب لإثبات أشياء آمن بها سلفاً. فالمستشرق اللاهوتي (مثلاً) -الذي لا يؤمن إلا بالنصرانية- يجعل من النصرانية مرتكزاً يتوكأ عليه لدراسة الإسلام. فإن وجد تشابهاً اتخذه دليلاً على اقتباس الإسلام ورسوله الأفكار والمعتقدات من النصرانية، بدلاً من أن يؤكد أن التشابه دليل على صدق الإسلام ورسوله، كما فعل النجاشي ، الذي كان موضوعياً في سماعه أقوال مهاجري الحبشة، واحتكم إلى الموضوعية والعقل، ولم يرضخ لعقلية الانحياز العاطفي التي حاول بطارقته أن يجروه إليها، فقال قولته المشهورة بعد أن استمع من جعفر بن أبي طالب إلى حجته، وإلى تلاوته آيات من سورة مريم، حيث بكى حتى اخضلت لحيته: " إن هذا (ويعني القرآن) والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة..."(٢) .

ولما كان الاستشراق يعني " معرفة الشرق ودراسته"(٣) ، وعلى الأخص كل عناصر ثقافة الشرق الإسلامي من علوم وتاريخ وعقيدة وفكر(٤) ، فقد كان من الطبيعي أن يعتمد المستشرقون في دراستهم لثقافة وعلوم الشرق الإسلامي على ما كتبه علماء المسلمين أنفسهم. ومن ثم فقد كانت المادة العلمية التي تضمنتها مصنفات المسلمين الأول ؛ بما حوته من أغلاط ومبالغات، وافتقار إلى الدقة والتمحيص، أقول: كانت هذه الأغلاط التي استوقفت المستشرقين ولفتت أنظارهم جسراً عبر من خلاله هؤلاء المستشرقون إلى دراساتهم الاستشراقية التي عج الكثير منها بالانحرافات والافتراءات التي نجحوا في جعلها نتائج منطقية – وفق مناهجهم المنحرفة – لما ورد في تراث المسلمين من أغلاط وقع فيها السلف من المؤرخين والمفسرين وكثير من المصنفين الأول.

ويجدر بنا – قبل أن ندلف إلى موقف المستشرقين – أن نشير إلى أن المناهج التي انتهجها المؤرخون الأول في كتابة السيرة النبوية، كانت دافعاً لأن يجد المغرضون من المستشرقين ثلمة ينفذون من خلالها إلى النيل من السيرة النبوية ، لما لهذه الحقبة من أهمية ، ليس في تاريخ المسلمين فحسب، وإنما في

تـــاريخ الدعوة الإسلامية ذاتها. وهذا يعني النيل من الإسلام والطعن في أصوله وثوابته، من خلال التشكيك والافتراء على رسول الإسلام (ﷺ).

مؤرخو السيرة:

لاشـــك أن علـــم الـــتاريخ - عند المسلمين - يكون جزءاً رئيساً من تراثهم الثقافـــي، وموروثهم الحضاري؛ ومن ثم فقد حرص المؤرخون الأول على إعمال منهج علم الحديث في التأريخ لحقبة صدر الإسلام، لاسيما سيرة النبي (ﷺ).

إذ إنـــه بظهـــور الإسلام، جاء القرآن بنظرة جديدة وجادة للماضي، وإبراز أهميته في فهم الواقع والمستقبل، لاسيما ما تعلق بتاريخ الأمم والشعوب السالفة، ومـــا وقـــع للأنبـــياء ، وأتباعهم من أحداث، وهي نظرة تستهدف استنباط العبرة والعظة من الماضي ، كما أكد القرآن الكريم على حقائق يمكن اعتبارها من أهم معطـــيات الـــتأريخ للسيرة النبوية، من أهمها: أن القرآن الكريم نفسه نصَّ على حتمية صدق الرسول (ﷺ) ، وأن أقواله وأفعاله وسيرته بأكملها أسوة ينبغي على المســـلمين أن يقتدوا بها، وهو ما كان دافعاً مباشراً للمبادرة إلى التنافس في حفظ سيرته (ﷺ) من خلال ترديد أقواله وتناقلها بالرواية، وذكر أفعاله. كما أن الحقبة الأولـــى مـــن صـــدر الإسلام - بما شهدته المسلمين من أحداث حيوية كان لها أهميـــتها في حماية الدعوة ونشرها كغزوات الرسول ﷺ ، وفتوحات المسلمين - جعلـــت المســـلمين الأوائـــل يشعرون بأهمية هذه الأحداث ودورها التاريخي في تغيـــير مجـــرى البشـــرية. وهـــو ما كان له دور كبير وأثر قوي في الدراسات التاريخـــية. زاد مـــن هذا الاهتمام لدى المسلمين حرص عمر بن الخطاب على وضـــع تقويـــم ثابـــت بدأه بهجرة الرسول ﷺ، " ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث (أو تأريخها) العمود الفقري للدراسات التاريخية"(٥) .

ثـــم اتسع الاهتمام بدراسة سيرة الرسول ﷺ خلال القرن الأول الهجري - ليشـــمل فعالـــيات الأمة بكاملها، وقد ظهرت هذه النواحي المختلفة في الدراسات

التاريخية. وبدأت دراسة "**مغازي**" الرسول في المدينة ضمن دراسة الحديث. ومع أن المحدثيـــن استمروا على اهتمامهم بالمغازي، إلا أن بعضهم أخذ يعني بدراسة حـــياة الرســـول بشكل يتعدى الاقتصار على نواحي التشريع، وكان رواد دراسة المغـــازي محدثيـــن. وهذا يفسِّر أهمية " الإسناد" أو سلسلة الرواة في تقدير قيمة المغازي، ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة [٦].

وحيـــن نأتي إلى ابن **إسحق** (ت: ١٥١هـــ/٧٦١م)- وهو أقدم كُتَّاب السيرة النبوية – نلاحظ تطوراً ملحوظاً تمثل في وجود عنصر القصص الشعبي والاتجاه نحـــو المبالغة. وعندئذ نحس – علي حد تعبير د. عبد العزيز الدوري [٧]- بأننا انتقلنا إلى علماء هم مؤرخون أولاً، ثم محدِّثون من الدرجة الثانية.

بـــيد أنه ينبغي أن نشير إلى أن **ابن إسحق** قد اختلفت أقوال علماء الجرح والـــتعديل في روايته لأحاديث الأحكام بين الجرح والتعديل، فقال عنه البغدادي : "احتج بروايته(ابن اسحق) في الأحكام قوم من أهل العلم وصدف عنها آخرون"[٨]

ولسنا بصدد مناقشة الآراء التي عرضت لمصداقية ابن إسحق والوثوق به، وإنما فقط نريد أن نشير إلى أن ابن إسحق لم يكن على درجة عالية من الدقة في رواياته. وحسبنا أن نحيل إلى ما قاله **الإمام مالك بن أنس** عنه في هذا الصدد[٩]. بـــيد أنه في مقابل من تكلموا في ابن إسحق وجرحوه، اتجهت طائفة من العلماء إلـــى توثـــيقه والثناء عليه، وممن عدلوا ابن إسحق " **سفيان بن عينية**" الذي قال "محمد ابن إسحق أمير المحدثين؟ فقيل له: ولِمَ ؟ فقال : لحفظه[١٠].

وربمـــا يعنيـــنا أن نـــورد آراء بعضـــهم عنه في مجال السيرة، حيث أثنى الذهبـــي[١١] علـــى ابن اسحق في السيرة، ووصفه بعدة أوصاف تشير إلى حفظه وإتقانـــه لها، فقال : كان في المغازي علامة وقال: كان حبراً في معرفة المغازي والسير".

وعلــى الرغم من ثناء الذهبي على ابن إسحق في السير، إلا أنه انتقده على ما حشا في سيرته من الأشعار المكذوبة، والأشياء المنكرة المنقطعة، وكان يقول: "فلــو حذف منها ذلك لحَسُنَت ، كما قال أيضاً في موضع آخر: "ولا ريب أن ابن اســحق كثَّر وطَّول بأنساب مستوفاة اختصارها أملح، وبأشعار غير طائلة حذفها أرجــح، وبآثــار لــم تصحح ، مع أنه فاته شئ كثير من الصحيح لم يكن عنده، فكتابه محتاج إلى تنقيح وتصحيح، وراوية ما فاته"[١٢].

وعلــى ضــوء مــا ورد في كتب الجرح والتعديل بشأنه، فقد استطاع أحد الباحثيــن[١٣] أن يخلص إلى نتيجة – من خلال استقراء سيرة ابن إسحق وموقف رجــال علم الحديث منه – مفادها أن منهج ابن إسحق في تدوين السيرة، لم تكن "الصــحة" شرطاً فيما جمع، ولم يكن من منهجه تــمييز الروايات الصحيحة من الضــعيفة . ولهــذا حــوت سيرته – إلى جانب الروايات الصحيحة – الأخبار الواهية، والروايات المنكرة...

ولا يخفــى علــى باحث في التاريخ الإسلامي أن ما أورده ابن إسحق من أحداث السيرة – رغم ما يؤخذ عليه في منهجه، صار مورداً لمن جاء بعده ممن كتبوا في السيرة، أو دونوا أحداثها في مؤلفات. حتى قيل: " إن الناس عيال على ابن إسحق في المغازي والسير".

وهنا تجدر الإشارة إلى أن السيرة النبوية المتداولة، والتي تنسب **لأبي محمد عــبد الملــك بــن هشام المعافري** (ت بمصر سنة ٢١٣هــ)، تعتمد في غالبية نصوصــها، علــى ما أورده ابن إسحق، حيث يورد ابن هشام رواياته متصدرة بقولــه : (قال ابن إسحق). فابن هشام تناول ابن إسحق بالاختصار ، وبالتصويب والتوضيح والزيادة أحياناً أخرى، فحذف ما فيها من أخبار الجاهلية، وبخاصة من قــبل إســماعيل بــن إبراهيم (عليهما السلام) ، كما استغنى عن بعض الأشعار، وبخاصة ما وجد فيها منافاة للمقصود من السيرة ، أو ماساً ببعض الشخصيات ..

محافظاً على نص ابن إسحق. وما يضيفه فقد نسبه إليه هو . " فكان هذا المسلك جديراً بأن تنسب إليه السيرة، وتعرف بسيرة ابن هشام"(١٤).

ولقد كان **الإمام البخاري** ممن اعتمدوا على ابن إسحق في السيرة . يقول د. سليمان العودة: "أما ابن إسحق فيعد من مصادر البخاري في السيرة". قال ابن حجر: وقد استشهد به البخاري وأكثر عنه فيما يحكى في أيام النبي ﷺ وفي أحواله، وفي التواريخ"(١٥) . ومن المعلوم أن أحداث السيرة في صحيح البخاري ليست قليلة(١٦).

- أما **الطبري** (ت: سنة ٣١٠هـ) وهو من أوائل المؤرخين – أصحاب الحوليات- فقد أفاد من المواد التي جمعها المؤرخون قبله، واستعمل طريقة الإسناد التي جرى عليها رواة الحديث. كما تأثر بطريقتهم في كتابه **(تاريخ الرسل والملوك)** ، الذي استطاع أن يجمع فيه مجموعة كبيرة من مختلف الروايات والأخبار بيد أنه يعاب عليه – كغيره من مؤرخي العرب – أنه لم يتجاوز الوصف والسرد الحولي. ولم يفكر الطبري في تعليل الحوادث، ولم يحاول تعرف أسبابها، وهو في روايته يكتفي **بالتعويل على الإسناد**، دون أن يعرض النص نفسه على تفكيره الخاص، ويزنه بميزانه، ويخضعه لبحثه وتحليله. وهو يصارحنا بذلك في بساطة مستحبة، فيقول في مقدمة كتابه: " وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فمهما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره

قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معـنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبل بعض ناقليه إلينا. وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِىَ إلينا".(١٧)

- **تعقيب:**

- لقـد بـدا واضـحاً حـرص المؤرخين الأول – ممن اعتمدوا على منهج المحدثيـن – على العناية بالإسناد وعدالة الرواة في المقام الأول، دون أن تكـون هـناك عناية مماثلة لتمحيص الخبر المروي وعرضه على حجج العقـول والمنطق، والاكتفاء –في بعض الأحيان – بإيراد بعض الأخبار، علـى ما هي عليه من عدم الحجية والافتقار إلى المنطق، لمجرد أن يؤول سند هذه الأخبار إلى واحد ممن ثبتت – عند أهل الحديث– عدالته، لاسيما إن كـان من الصحابة أو التابعين، وليس معنى هذا أننا نقلل من قيمة هذه الأخبار أو نقدح في عدالة الصحابة أو التابعين (معاذ الله) ، ولكننا نريد أن نؤكد المقولة التي تقول: "يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال". وفـيها دلالـة واضـحة على أن مصداقية الراوي تتحقق بمدى صدق ما يـرويه مـن أخبار وحقيقة هذه الأخبار، لا أن تكتسب الأخبار مصداقيتها لمجـرد أنها صادرة عن فلان أو فلان فهذا فضل وانـميار لم يحظ به إلا رسول هذه الأمة ﷺ ، رغم بشريته، بتزكية من الله عز وجل الذي أخبرنا فـي حقه "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى" وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا".

- عـامل بعـض المؤرخين ومن نقل عنهم، بل وكثير من الباحثين، الأخبار الواردة في أحداث السيرة النبوية بجملتها معاملة الحديث النبوي، وأضفوا عليها شيئاً من القدسية والحصانة التي تحول دون عرضها على المنطق أو

الحجج العقلية، وأن مجرد التفكير في ذلك يدفع بالمفكر إلى دائرة قد تزج به إلى أوحال الفسق أو التشكيك في ثوابت الدين.

ونقول: إن كان هذا جائزاً فيما يتعلق بالأحاديث الصحيحة، والتي أكد علماء الحديث والجرح والتعديل صحتها، لاسيما ما كان متعلقاً منها بأمور غيبية " كحادثة الإسراء والمعراج"، أو قول النبي ﷺ في حديث (الإسلام، والإيمان، والإحسان)، هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم، أقول: فإنه لا يجوز في عامة الأخبار التي لم يُقطع بصحتها أو أنها تدخل في مجمل السنة النبوية. (من أقوال وأفعال وتقريرات)، وإنما هي مجرد أحداث ووقائع واكبت أفعال الرسول ﷺ ، أو كانت وصفاً ورصداً لهذه الأحداث من قِبَل من عايشها أو حُكِيت له.. وهو ما لا يمنع ورود الخطأ فيها. فهي لم تكن وقائع حدَّث بها النبي ﷺ ، أو غيباً أُخبِرَ به.

* <u>نماذج من أغلاط المؤرخين:</u>

(١) عند الحديث عن عودة المهاجرين من الحبشة **وقصة الغرانيق**. تشير رواية الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ "سجد بالنجم" وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[١٨]. على أن هناك رواية أخرى – عن ابن إسحق- لم يروها البكائي" عنه، وإنما رواها يونس بن بكير عن ابن إسحق – دون إسناد – وفيها ذكر قصة الغرانيق. حيث جاء فيها:

"فأقام مهاجرة الحبشة حتى بلغهم أن أهل مكة" قد أسلموا وسجدوا ، وذلك أن سورة النجم أنزلت على رسول الله ﷺ فأنصت إليها كل مسلم ومشرك حتى انتهى إلى قوله تعالى: " أفرأيتم اللات والعزى" فأصاخوا له، والمؤمنون يتصدقون[١٩]. وارتد ناس حينما سمعوا سجع الشيطان، فقال: والله لنعبدهن ليقربونا إلى الله زلفى، وعلم الشيطان الآيتين كل مشرك، وذلت بها ألسنتهم ، وكَبُرَ ذلك على رسول ﷺ حتى أتاه جبريل عليه السلام، فشكا إليه هاتين الآيتين، وما لقى فيهما . فتبرأ جبريل عليه السلام منهما، وقال : لقد تلوت على الناس ما

لم آتك به عن الله عز وجل، وقلت مالم يُقَل لك: فحزن رسول الله ﷺ حزنا شديداً وخاف، فأنزل الله عز وجل تعزيّه له : "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته" إلى قوله " عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (سورة الحج ٥٢).

ورواية ابن إسحق هذه – كما قدمتُ – ساقها ابن إسحق دون إسناد، وفيها زيادة على رواية الصحيحين وعلى رواية البكائي عن ابن إسحق أيضا[٢٠].

وقد ذكر ابن جرير الطبري- في تفسيره وتاريخه[٢١] – رواية أخرى عن ابن إسحق عن يزيد بن زياد المدني عن محمد بن كعب القرظي وفيها ذكر القصة، لكن الرواية مرسلة من القرظى وفيها عنعنة ابن إسحاق.[٢٢]

وبالجملة فقد تعددت روايات وطرق القصة حتى جمع لها بعض الباحثين[٢٣] عشر طرق، كلها مرسلة ما عدا طريقاً واحداً أسند إلى ابن عباس – وفيه مقال.

- واكتفى بهذه الإشارة السريعة لأبرز أغلاط المؤرخين والمفسرين، وهو نموذج من الافتراءات التي انتهز فيه خصوم الإسلام فترة سلمت فيها نوايا الرواة من العلماء، وثغرة سولها لهم الشيطان، وخولها لهم الكفر، فتطاولوا على مقام الرسالة، وحاولوا – في زعمهم – أن يبطلوا أصول الدعوة الإسلامية بإثبات تدخل الشيطان مع رسول الله ﷺ فيما يبلغه لأمته من آيات القرآن[٢٤] .

فهي بلاشك – قصة ، أو فرية، يخترعها مغرض خبيث . ودائما مصنع الأكاذيب في كل زمان ومكان يخترع الموبقات كلها ويلقى بها على البسطاء والبلهاء الذين لا يعرضون ما يسمعون من الأخبار على عقولهم ولا يفحصونها أو يمحصونها قبل إذاعتها حتى يتأكدوا من بعدها عن المنطق، أو قربها من المعقول قبل أن ينقولها. ويؤكد ذلك ما ذهب إليه **د. إبراهيم شعوط**، حينما قال : "والقائمون على جهاز الأكاذيب في كل عصر فيهم مهارة وخبث، فلا يلقون بضاعتهم إلا في وسط يعتقدون فيه أنه مهيأ لحمل هذه الميكروبات لينشرها بين

الـــناس علـــى أنها غير مسندة إلى قائلها، وإنما تسند – فيما بعد – إلى جملة من الرواة"[٢٥].

• وهكـــذا فـــإن أصل الفرية عمل خبيث، اضطلع به مغرض زنديق، وروّجها زنادقة من أعداء الدين حتى انتشرت في مجامع البسطاء، ثم تناقلها الناس، حتى يخيل لسامعها أن رواتها من الكثرة بحيث لا يطعن في أخبارهم [٢٦].

ويجـــدر بـــي أن أخـــتم حديـــث عن هذه القصة بما ذكره د. أكرم ضياء العمـــري، حيـــث قال: " وقد ذهبت روايات مرسلة صحيحة السند إلى مرسليها، وهم سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو العالية إلى أن الشيطان ألقى علـــى لسان الرسول ﷺ في قراءته في صلاته تلك العبارة: " تلك الغرانيق العلا، وإن شـــفاعتهن لترتجى". كما ذهبت روايات مرسلة أخرى، ضعيفة الأسانيد، إلى مرسليها إلى أن العبارة قالها الشيطان، وسمعها المشركون دون المسلمين. فسجد المشركون بسجود المسلمين[٢٧]. وما قالته المراسيل المعتبرة يصطدم مع عصمة النـــبوة في قضية الوحي، ويعارض التوحيد، وهو أصل العقيدة الإسلامية، لذلك فإنهـــا مرفوضـــة متناً، حتى لو ثبت تعدد مخارجها، ولم يأخذها الثلاثة التابعون (سعيد بن جبير وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو العالية) عن شيخ واحد.

• ومـــن ثـــم فـــإن مـــثل هذه الواقعة كانت أرضاً خصبة تنمو فيها انحرافات المستشـــرقين المغرضين[*]. فقد بيَّن فوك Fueck أن بعض المستشرقين صدق القصـــة، وبعضهم كذبها. حسب الهوى، وأما زعم (مونتجمري وات Watt) أن القصـــة صحيحة لأنها في غاية الغرابة، فلابد أن تكون حقيقة في جوهرها إذ لا يتصور أن يكون أحد اختلق قصة مثلها، ثم اقنع جماعة ضخمة من المسلمين أن تقبلها[٢٨]. وسيأتي الحديث عن موقف المستشرقين من أغلاط المؤرخين.

---

[*] ولقـــد أوردت بعض المواقع المغرضة على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) حديثاً مطولاً عن هذه الواقعة تحت عنوان (آيات شيطانية). www.coptichistory.org/new-page-194

(٢) ومـن العجيب أن **الأنمـوذج الثانـي** الـذي أود أن أنوه إليه من أغلاط المؤرخيـن، لا يخلـو مـن وجود الشيطان أيضاً. حيث حرصت كتب السيرة- أيضـا - على إقحام إبليس في **تلك المؤامرة التي دبرها صناديد قريش للتخلص مـن النبـي ﷺ فـي دار الندوة**. حيث اعتمد غالبية المؤرخين على ما رواه ابن إسـحق فـي هذا الأمر. قال ابن إسحق: " فحدثني من لا اتهم من أصحابنا (ولم يذكـر لـنا من هذا الذي لا يتهمه ابن اسحق، ليوضع في ميزان (الاعتدال)، عن عـبد الله بن نجيح ، عن مجاهد بن جبير أبي الحجاج، وغيره ممن لا اتهم، عن عـبد الله بن عباس ﷺ ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرجمة [وذكره الطبري يوم الزحمة] فاعترضـهم إبليس في هيئة شيخ جليل ، علـيه بـتلة (كساء غليظ مهلهل مربع أخضر)، فوقف على باب الدار. فلما رأوه واقفـاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يُعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل" ... وتمضي الرواية لتشير إلى دور فعال لإبليس هذا من خلال تفنيده للآراء التي نوقشـت فـي هذا الاجتماع المغلق، حتى عرض أبو جهل عمرو بن هشام رأيه الـذي يقضي بأن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً، ثم يُعطي كل فـتى مـنهم سـيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، ويسـتريحون منه، وعندئذ يتفرق دمه في القبائل جميعاً، ولا يقدر بنو عبد مناف علـى حـرب قومهم جميعاً، فيرضون بالعقل (الدية) . عندئذ قال الشيخ النجدي (إبليس): القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره... إلخ.

وهكـذا أورد المؤرخون[٢٩] هذه القصة بعد أن تناقلوها عن ابن إسحق دون إعمـال للعقـل فلم يعرضوها على أصول منطقية، ولا سبروها بمعيار الحكمة، وإمعـان الـنظر. وكأن نسبة هذه الرواية لابن إسحق، وإسنادها لابن عباس (إن صـحَّت عـنه)، دلـيل دامـغ علـى الوثوق بها، وتنـزيلها منـزلة الأحاديث الصحيحة، التي ينبغي عدم إعمال العقل معها. على الرغم من أن الواقع المنطقي

ينافي ذلك تماماً فمعيار العقل والحكمة يدفعنا إلى طرح عدد من التساؤلات ، التي من أهمها: هل كانت مباحثات دار الندوة معلومة لدى الناس، حتى يزعم هذا الشيخ النجدي أنه ما أن سمع بأمرهم حتى حضر ليشاركهم الأمر؟ ... ثم هل كان من الطبيعي أن تسمح قريش لرجل ليس من رجالاتهم (صناديد قريش) ولا أحد يعرف شيئاً عنه أن يدخل دار الندوة التي لا يسمح بدخولها إلا لكبار القوم والسن وعِلْية المجتمع القرشي؟. فهي بمثابة برلمان قريش... وما الذي جعل المؤتمرين يثقون فيه إلى هذا الحد الذي جعلهم يقبلون منه أن يعلق على آرائهم بالرفض والقبول.. ثم ينتهي به الأمر أن يرجح أحد آرائهم "رأي أبي جهل عمرو بن هشام"، دون أن يبادر هو باقتراح من بنات أفكاره، يدعم حجته التي جعلتهم يسمحون له بمشاركتهم في هذا الاجتماع الخطير " وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً". ثم ألم تكن هناك أية تدابير وقائية وأمنية من قبل قريش تجاه هذا المؤتمر المصيري؟؟ وهل كان " إبليس " في حاجة لأن يتنكر ويشخص لهم في صورة ذلك الشيخ النجدي، ألم يكن إبليس ملازماً لهم جميعاً، وموسوساً لهم بآرائهم ومقترحاتهم التي عرضوها في دار الندوة والتي كانت ترمى إلى التخلص من محمد ﷺ ودعوته بالحبس أو النفي أو القتل. وهو ما عبر عنه القرآن صراحة، دون أن يشير النص القرآني، أو الوحي الإلهي عن طريق جبريل إلى إبليس. باعتباره ملازماً وموسوساً لكل من حاد عن الصراط المستقيم. ثم هل كان هؤلاء الصناديد من أبالسة قريش في حاجة إلى دعم فكري من إبليس ، وقد فاقت أفعالهم واضطهادهم للرسول ﷺ ودعوته وأتباعه كل ما يوسوس به إبليس وأعوانه.. ثم إذا كان الراوي (ابن عباس) ومن روى عنه هو الذي ذكر أنه أبليس، فمن الذي أخبر ابن عباس بأن هذا الشيخ النجدي هو إبليس ؟ .. إذ لا يُعقل أن يفصح إبليس للمتآمرين عن هويته ..ولو كان الذي أخبره هو الرسول ﷺ فلماذا لا ترد هذه الواقعة في سلسلة الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

ويقول أحد الباحثين [٣٠]: " لقد تكتمت قيادة قريش تكتماً تاماً على اجتماعها في دار الندوة، فلم يعلم أحد من المؤمنين بأمره، ولا حتى أولئك الموالين للنبي ﷺ مـن كفـار قـريش فلم يدع له أحد، وبخاصة عمه العباس. وقد نجحوا في أمر الكتمان هذا، بدليل أن النبي ﷺ لم يعلم به إلا عن طريق الوحي".

وبقـى أن نقول إن حذف مثل هذه الواقعة وإسقاطها من السيرة النبوية، لا يغـير مـن الأمر شيئاً ولا يضعف من عقيدة المسلمين. بل يمكن أن نقول : "إن علماً بها لا ينفع، وجهلاً بها لا يضر".

(٣) وأما **النموذج الثالث** من أغلاط المؤرخين ، فيتمثل فيما قاله ابن إسحق (في واقعـة الهجـرة): " وأقـام رسول ﷺ في الغار (غار ثور) ثلاثاً ومعه أبو بكر، وجعلـت قـريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكـر يكـون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسـول الله ﷺ وأبـي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهـيرة، مولـى أبى بكر ﷺ يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غـنم أبـي بكر **فاحتلبا وذبحا**، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه، حتى إذا مضت الثلاث (ليالي)، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له، **وأتتهما** أسماء بنت أبي بكر ﷺ بسفرتهما (السفرة: طعام يتخذ للمسافر)، ونسيت أن تجعل لهمـا عصـاماً (رباط) ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً، ثم علقتها به"[٣١].

والذي يبدو غريبا في الرواية تلك المغالطة التي لا تتوافق والمنطق والعقل السـليم، فـي ضوء الواقع الملموس. حيث يصور ابن إسحق أن عامر بن فهيرة يذهـب بالغـنم إلـى النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر – مدة إقامتهما في غار ثور – فيحلـبان اللبن، وهذا أمر طبيعي وممكن، وليس فيه ما ينافى الواقع أو المنطق،

وهـــو ما اكتفت به بعض المصـادر الأخرى[٣٢] من إشارة إلى أن عامر بن فهيرة كان يريح عليهما الغنم فيحلبان (فيبيتان في رسل ، وهو لبن منحتهما) حتى ينعق بها (بالغنم) عامر بن فهيرة بغلس.

أمـــا ما تفرد به ابن إسحق من إضافة **الذبح** إلى الحلب، فهذا ما يتنافى مع الواقـــع والمـــنطق الســـليم، إذ لا يعقـــل أن يقوم النبي ﷺ وأبو بكر بالذبح خلال رحلتهما هذه. فهي لم تكن رحلة برية ترفيهية. يقوم فيها الرحالة بالصيد والذبح.. ولا شك أن من متطلبات الذبح الشواء، وهذا ما لا يقبل بالكلية، ولا يتواءم ومنهج الحـــيطة والحـــذر الذي توخاه النبي ﷺ في رحلته المصيرية ، التي كانت رحلة بالدعوة والإسلام من أرض الاضطهاد والتعذيب إلى حيث الموطن الجديد للدولة الإسلامية التي تطلع ﷺ إلى تأسيسها.

هذا فضلاً عن أنه عهد عن النبي ﷺ قدرته على تحمل الشدائد حتى في غير المواقـــف التي تتطلب مزيداً من الحيطة والحذر، فقد روت السيدة عائشة رضي الله عـــنها، أنـــه كان يمر الهلال والهلالان (الشهر والشهران) ولا يوقد في بيت رســـول الله نـــار. وهـــذا يؤكـــد مـــا ذهبتُ إليه من انتفاء فكرة الذبح والشواء ومتطلـــباتهما ممـــا يخـــرج عن منهج الحذر، بل لو أنهما فعلا ذلك (ذبحا)، لكان الوصـــول إليهما في الغار من الأمور لا التي تتطلب جهداً. إذ إن رائحة الشواء ، وضوء النار في الصحراء لكافيان للوصول إلى مكان اختبائهما دون جهد يذكر.

كذلـــك فإن ما أشار إليه ابن إسحق من أن أسماء بنت أبي بكر (أتتهما) في الغار ، فهذا أيضاً غير منطقي وتعوزه الدقة. إذ ليس من الممكن أن تخرج امرأة لتخـــترق رمـــال الصحراء، وتدلف إلى غار يصعب الوصول إليه ويتعذر على الـــرجال والفتـــية. فهل من الطبيعي أن تخرج امرأة وهي (حامل)[٣٣] إلى جوف الصحراء . وهو أمر – أيضا – ينافي التدابير الوقائية التي كان ينبغي إتباعها في مثل هذا الموقف.

وبعــــــــد

فلا يسعنا إلا أن نقول: إن هناك أغلاطاً وقع فيها مؤرخو السيرة النبوية من خـــلال تلك المرويات والأخبار التي تسربت مدسوسات الخصوم ومخالفات الحقد علـــى العقــيدة الإسلامية، منذ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا . وهي أغلاط يسهل على قارئ السيرة المدقق والممحص أن يختبرها بمقاييس دقة الرواية، ونقدها من خلال عرضها على المنطق السليم. وما من شك في أن المنطق والعقل لا يتنافيان مع ما جاء صحيحاً من الشرع (قرآناً وسُنَّة). وأن للغيبيات مكانتها الإيمانية التي لا تتســـرب إليها الشكوك والهواجس ، وأدلتها من القوة بما لا يسمح للمرتاب أن يعبث بمصداقيتها ، بوصفها جزءاً من العقيدة.

كمـــا أنـــه لا ينبغي – في كل الأحوال – أن نضفي على كل أحداث السيرة هالـــة من التقديس واللامساس بما يجعل إخضاع هذه النصوص إلى العقل أمراً غـــير وارد فـــي دائـــرة البحث العلمي. وأن الجرأة على مناقشة هذه المرويات بالمنطق والعقل تطاول على سيرة النبي ﷺ، بل – وفي اعتقاد البعض– أنه خطوة وتمهيد لإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة. وهذا – في اعتقادي – ما جعل كثـــيراً من الباحثين يحجمون عن الخوض في هذه القضايا .. وأنه يتحتم علينا – في اعتقادهم– ألا نصف السيرة بأنها تحتوى على أغلاط. وليس خافياً على باحث أنـــه ينبغـــي الـــتفريق بين السيرة النبوية التي وردت أحداثها في كتب الأحاديث بأســـانيد صـــحيحة، وروايات مقبولة. وبين الأخبار والأحداث التي دونت بأقلام بعـــض المؤرخيـــن الذين تأثروا بمنهج علم الحديث في تحقيق السند وتمحيصه . وهذه هي الطريقة التي انتقدها ابن خلدون في مقدمته[٣٤]، وحمل عليها ، وقال في التـــنديد بهـــا : " إن الأخـــبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العـــادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قـــيس الغائـــب مـــنها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق،وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة

النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط".

وينبغي ألا يغرب عن بالنا أن كثيراً من هذه الأغلاط التي وردت في كتب السير والتاريخ – بقصد أو بغير قصد – كانت مطية سهلة الانقياد يسرت للمغرضين[٣٥] من المستشرقين مهمتهم فيخلق الافتراءات ونسج الأكاذيب التي كان لها دور كبير في تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب.. ومن ثم بذل هؤلاء المستشرقون قصارى جهدهم في تحقيق هدفهم المنشود.. فخدعوا أنفسهم وعقولهم قبل أن يخدعوا قرّاءهم من أهل الغرب والشرق .

فإذا كان خداعهم لقرائهم من أهل الغرب هدفاً تتطلبه استراتيجيتهم نحو عزل شعوبهم عن الإسلام بتشويهه، فإن خداعهم لبعض القراء والدارسين من أهل الشرق والمسلمين آتي ثماره، بصورة جعلت هؤلاء المخدوعين، يسهمون بأنفسهم في تحقيق استراتيجية الغرب، ويضفون على تلك التشوهات والافتراءات التي أحدثها المستشرقون مزيداً من المصداقية لدى شعوب الغرب، فتنطلى عليهم الأضاليل التي يؤكدها منطق المسلمين (المخدوعين) أنفسهم. وبذلك يكون قد "وافق شن طبقه" – كما يقول المثل العربي.

* المستشرقون والسيرة النبوية:

لقد نشأ عدد كبير من الدارسين المسلمين في العصر الحديث في كنف الغرب، وشبوا على الثقافة الغربية وطرقها في التفكير، والنظر للأمور، وتشبعوا بروح الفكر الاستشراقي المادي العلماني. وحين أخذوا في دراسة وتحليل السيرة النبوية وتاريخ الإسلام ، تأثروا بهذه العقلية فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً، لأن منطق التفكير الأوربي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء والرسالات

الإلهية التي ظهرت في الشرق، وكان تأثيرها الخاص في تاريخه وحضارته عميقاً[٣٦].

فلقد كان المنهج العلمي الغربي الوافد في كل محاولاته في ميادين العقائد والأدب والاجتماع والفكر متجاوزاً للمجتمع الإسلامي، ومعارضاً للقيم الأساسية للفكر الإسلامي، فقد كان يصدر أساساً من منطلق الاحتواء ومحاولة السيطرة : سيطرة الفكر الغربي.. الذي يحاول أن يبهر النفس العربية الإسلامية بقوته وجبروته ويحمل مع ذلك دعوة المسلمين والعرب إلى التماس أسلوبه ومفاهيمه ومقوماته كسبيل للوصول إلى السيادة والسيطرة[٣٧].

ومن ثم انطلقت الدعوة من اتباع المنهج العلمي الغربي الوافد إلى نقل المناهج والأساليب الغربية واعتناقها في مختلف مجالات الفكر، والتمست أسلوب العلمانية أساساً. " ولقد اصطنع المنهج العلمي الغربي الوافد في سبيل فرص نفوذه وسلطانه في أفق الفكر الإسلامي أساليب كثيرة، كان أخطرها قادة الفكر، وكتاب الصحافة، وأساتذة الجامعة .."[٣٨]

<u>نموذج من صنائع المنهج الغربي:</u>

حرص بعض المستشرقين من المغرضين على إضفاء بعض الإسقاطات[٣٩] على السيرة النبوية، وهي إسقاطات مدروسة وواعية، تهدف إلى بث الشبهات وتشويه السيرة من خلال الدس الخبيث، والافتراءات التي وجهت إلى عقيدتنا وتاريخنا.

ومن الإسقاطات التي يرددها المستشرقون المتعصبون كثيراً، بل ويردده بعض المتعصبين من أهل الكتاب، إنهم يقولون: **انتشر الإسلام بالسيف، وانتشرت المسيحية بكسب القلوب بالمحبة .**

من ذلك ما قاله المنسنيور كولي: " لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب،

ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع بالملذات، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقية فريسة له"(٤٠).

ومثل هذه الإسقاطات والتعبيرات ليست غريبة على ألسنة المتعصبين من المستشرقين، فهذا لا يتنافى مع استراتيجيتهم التي أسلفنا الإشارة إليها. فقد أورد كارل بروكلمان نصاً مقارباً لذلك حينما قال في كتابه المشهور (تاريخ الشعوب الإسلامية): " يتحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم؛ لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني " (٤١).

بيد أن الخطورة تكمن حينما يتبنى هذا المنهج الغربي الوافد بعض المسلمين، ويجعلوا من أقلامهم ومصنفاتهم أبواقاً تردد هذه الافتراءات. وهو ما يمكن أن يكون له صدى خطير على الصعيد الإسلامي والعالمي. فقد كتب د/سيد محمود القمني في كتابه (حروب دولة الرسول)(٤٢) أثناء حديثه عن مشورة الأنصار في غزوة بدر: " وهكذا تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، وأدرك الأنصار أنه قد آن أوان الإفصاح عن كامل بنود ذلك الحلف، التي وعوها مبكراً في قولهم للنبي آنذاك : " إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا"، فأجل النبي الإمالة بالسيف إلى فيما بعد. وقد جاء أوان المابعد – والحديث للدكتور القمني – الذي طور البنود المعلنة، من ميثاق دفاعي لتسفر عن البند المرجأ الذي يجعل الميثاق حلفاً هجومياً محارباً، فتحولت عناصر الجماعة الإسلامية كلها، مهاجرين وأنصار، إلى دولة محاربة هجومية ، دولة عسكر ومغانم متكاملة مقاتلة كالقبيلة تماماً وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ممثلة في رجال الحرب والدم والحلقة الذين تحولوا عن الإجارة إلى الإغارة".

فإذا كان هذا ما اختطه قلم باحث عربي يحسب على المسلمين، فلا غرابة – إذن – في أن تنطلق السموم من كتابات بعض الحاقدين من المستشرقين في هذا

الصـــدد. إذ إنـــنا لـــن نجنى من الشوك العنب ولا بأس- إذن- أن يكتب **آنست ريـــنان**: "إن ســـيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية" (٤٣). وأن يكـــون كلامــــه هذا نواة للتصور العالمى الذي يهيمن على الفكر الغربي، لا سيما بعـــد أحداث سبتمبر، وبعد صدور كتابي: نيكسون عن الشرق والإسلام، وصراع (صدام) الحضارات، لصموئيل هانتجتون.

* **تعقيب:**

وقد يبدو الموقف مستعصياً على التعليق، إذ إننا ندرك تماماً الجذور العدائية للغرب نحو الإسلام والمسلمين. فكيف بنا – نحن المسلمين – ونحن نعيش القرن الحادي والعشرين ، ونصطدم بتيار العولمة الجارف أن نترك مؤلفاتنا ومصنفاتنا، ومـــا حوتـــه مـــن أغلاط ومغالطات، قديماً وحديثاً- سلاحاً مدمراً في أيدي من تشبعت نفوسهم بالروح العدائية التي ازدادت اتقاداً عما كانت عليه روح الحروب الصـــليبية. لا ســـيما بعـــد أن أضحى العالم قرية صغيرة في عصر المعلوماتية، وأصـــبح بوســـعنا أن نفـــيد من هذه الثورة المعلوماتية في تصحيح تلك الأغلاط وتصـــويب مناهجـــنا في التعامل مع تراثنا العريق، الذي يعد أغلى ما نملكه من مـــوروث حضاري من شأنه أن يكون حصناً منيعاً لهويتنا من الأنسحاق والذوبان أمام تيار العولمة الجارف.

وحســـبي في هذا الصدد أن أشير إلى ما ذكره ريتشارد نيكسون – الرئيس الأســـبق للقطـــب الأحادي (الولايات المتحدة الأمريكية) معبراً عن موقف الغرب وأمـــريكا مـــن العالم الإسلامي، فقد نشر مقالاً (يفصح عن العداء السافر) – في مجلة الشئون الخارجية ١٩٨٥م، جاء فيه:

" Russia and America should join hands to fight the rising tide of fundamentalism"

روسيا وأمريكيا يجب أن تعقدا تعاوناً حاسماً لضرب الصحوة الإسلامية التي برزت معالمها(٤٤).

والحديث هنا لا ينحو نحو الصراع الحضاري الحالي، أو ما يدور على مسرح الأحداث العالمية من موقف الغرب من العالم الإسلامي. وإنما هو تنبيه وإنذار إلى ضرورة تصحيح وتجديد المناهج التي تعرض لتراثنا – على نحو ما أسلفت – لا سيما ما يتعرض منه إلى أمور وثيقة الصلة بالعقيدة ، وعلى رأسها السيرة النبوية، فحسبنا ما رزئت به السيرة من افتراءات المستشرقين.

ملامح من افتراءات المستشرقين(*):

وقد بدأت الرؤية الاستشراقية تجاه النبي ﷺ ودعوته في التكون منذ احتكاك المسلمين بالنصارى في الأندلس، ثم بدأت هذه الرؤية تتطور عبر العصور غير أنها كانت – على حد تعبير أحد الباحثين(٤٥) – تطوراً في الشكل دون أن تكون تطوراً في مضمون فهمها للإسلام، وهذه الرؤية في الأساس سلبية وعدائية نابعة من موقف الغرب العدائي تجاه الإسلام ونبيه ، خالية من الموضوعية، حتى أتهم محمد ﷺ في العصور الوسطى بالخداع في الشهوانية وعدم الوفاء.

وعلى الرغم من أن بعض المستشرقين – في القرن التاسع عشر – قد جد في البحث العلمي في دراسة مصادر الإسلام، من أمثال: **موير، ومرجليوث، ونولدكه ودوزي**، إلا أنه من المؤسف أن بعضهم غالى في النقد أحياناً، فكانت كتبهم عامل هدم. ولا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون ناقصة.

(*) قد يكون من المناسب أن أذكر أنه قدر لي أن أقضي وقتا في البحث والدراسة ، في كبرى المدارس الاستشراقية في أوربا، (S.O.A.S) مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، التي اضطلع بالتدريس فيها اليهودي (برنارد لويس)، أستاذاً للتاريخ العربي والإسلامي.

وتكـــاد الـــرؤى الاستشــــراقية – على مر العصور– تتفق على أن الإسلام تركيـــب ملفق من المسيحية واليهودية والمجوسية، هذا إذا كان المستشرق يحاول أن يظهر حياديته ونزاهته العلمية ، أمثال: **مونتجمري وات ، وبروكلمان**[٤٦].

فهاكم "**فيليب حتى**" في كتاب له بعنوان "الإسلام أسلوب حياة"، بعد أن يمعن فـــي وصف النظام السياسي في الإسلام بالثيوقراطية، يقول[٤٧] "والإسلام – مثل اليهودية والمسيحية– أصل الحكومة فيه أنها حكومة إلهية"، وهو الأمر الذي دعا الأب "فلـــيكس باريخا" في كتاب أشرف على تأليفه (الإسلام) إلى أن يقول : " إن الدولـــة التي أسسها محمد ﷺ كانت دولة حكومة إلهية، أي حكومة رجال الدين. وهـــناك غمـــوض استمر حتى وفاة محمد فيما يتعلق بمفهوم الله ومحمد والدولة، لدرجة أنها أصبحت مترادفة في بعض العبارات.. إلخ".

أما إذا انساق المستشرق وراء عواطفه، أو المؤثرات الضاغطة على وعيه، فإنـــه حينئذ لا يكتب دراسة علمية جادة عن الإسلام، وإنما يكتب سباباً، كما أورد ذلـــك (ســـبرنجر) في كتابه " حياة محمد وعمله" ، أميل در منغم (حياة محمد[*]) قائلاً : " **إن الإسلام مجموعة إلحاد من عمل الشيطان، وإن نبي الإسلام العربي الماكـــر أفـــاق وخادع ، ولص نياق خليع وساحر، كان رئيس عصابة من قطاع الطـــرق، وكـــان مصـــاباً بالهستيريا والجنون، مات في نوبة سكر وأكلت جثته الخنازير، وإن المسلمين مجموعة من الوحوش**"[٤٨].

ومـــن العجب أن تأتي المغالطات والترهات في دائرة علمية، يظن بها الثقة والاحـــترام وهـــي دائرة المعارف البريطانية التي تذكر في خبث أن لقب (**أمين**) الـــذي اتصف به النبي ﷺ ليس هو المقصود من مدلول اللفظ وإنما هو مأخوذ من (**آمـــنة**) وهو اسم أمه. وهي –بلا شك – مغالطة حقيرة تتنافى مع الواقع اللغوي والاجتماعـــي الذي عرفه العرب آنذاك ،والذي كان لا يستنكف أن يتم الربط بين

---

* ترجمة عادل زعيتر – ط. دار إحياء الكتب ، ١٩٤٩م.

الأم وابنها كما هو وارد في التصريح (**بعبد الله ابن أم مكتوم**). فضلاً عن دحض هذه الفرية من خلال ما ورد – إنصافاً – على لسان مستشرق آخر هو **سيديو** في كتابه (خلاصة تاريخ العرب، ص٤٣)، حينما قال : " وشبا محمد ﷺ حتى بلغ، فكان أعظم الناس مروءة وحلماً وأمانة، وأحسنهم جواباً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش حتى عرف في قومه **بالأمين**.

كما أن **قصة الغرانيق** قد لقيت شيوعاً وذيوعاً على ألسنة الغرب، حينما وردت في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن، إذ استغل محرر مادة محمد نبي الإسلام ﷺ في الموسوعة الإسلامية، القصة استغلالاً أسوأ وأشد مكراً، فأنكر في البداية أن تكون قصة واقعية. لكنه استدرك بعد ذلك لتقرير وجود بذور واقعية وراءها، وجعل منها مثالاً آخر لتأثر النبي ﷺ بالتصورات الوثنية ومشاركته مع كفار قريش في بعض معتقداتهم. وذكر أن إلقاء مسؤولية الانحراف عن عقيدة التوحيد على الشيطان هو نوع من اختزال أحداث السيرة، ويريد باختزال أحداث السيرة أن وجود مظاهر الوثنية في حياة النبي ﷺ وسيرته دامت مدة طويلة، فاختزلها كتاب السيرة في قصة كهذه.(٤٩)

وعلى ضوء ما سبق يمكن التأهب نفسياً وعلمياً لمنهج المستشرقين في دراستهم للسيرة النبوية التي تعد المصدر الثاني من مصادر التشريع، والتي هي بمثابة تطبيق عملي للقرآن الكريم والسنة القولية.

وقد يكون من الضروري أن ننوه إلى أمر ذي أهمية لدى الباحثين في التاريخ الإسلامي إذ إنه من وجهة النظر الإسلامية لا يمكن اعتبار السيرة النبوية مسألة تاريخية محضة، تخضع لأساليب النقد والتحليل، التي تعامل بها المراحل التاريخية المختلفة، وهو ما يفعله المستشرقون حينما يخضعون السيرة لمناهج البحث الغربية المادية والعلمانية ، وغيرها من المناهج ، بحيث يتسنى لهم التشكيك في السيرة النبوية ذاتها.

إذ إنـــه من المعلوم أن هناك أموراً قد تعتمد على مبدأ الإيمان بالغيب، ولا يمكـــن أن تخضع لمقولات العقل الصرف، ومعطيات المنطق المتوارثة، فالإيمان بالغيبـــيات عصب السيرة وسداها ولحمتها وليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمة فيها إلا بمقدار.

إن المستشـــرقين يتبعون في دراسة السيرة مناهج عديدة، منها **منهج العكس** حيـــث يأتي المستشرق بأوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها متعمداً إلى عكسها ، ومـــن ذلـــك ما ذكره المستشرق البريطاني **مونتجمري وات** في كتابه "محمد في مكة" "Mohommed at Mecca" عن ملابسات الهجرة إلى الحبشة ودوافعها، فهـــو يرفض الدوافع التي تقدمها مصادر السيرة، ويطرح بدلاً منها دوافع أربعة محتملة:

- أمـــا **أولـــهـــا** ، فهو رغبة محمد ﷺ في الحصول على مساعدة عسكرية من الحبشة تمكنه من السيطرة على مكة .
- وأمـــا **الثاني**: فهو رغبته في تحويل الحبشة إلى قاعدة لمهاجمة تجارة مكة ، كما فعل بعد ذلك في المدينة.
- وأما الدافع **الثالث** فهو محاولته ﷺ أن يتوصل إلى طريق تجاري بديل يتجه مـــن الجـــنوب إلـــى الإمبراطورية البيزنطية حتى يكسر الاحتكار الذي كان يمارسه المكيون على طريق التجارة إلى هذه البقاع.
- وأمـــا الدافـــع **الـــرابع والأخير** فهو من الأمور التي تثير الضحك، إذ يزعم (وات) أنـــه كانـــت هـــنالك خلافـــات حادة في الرأي داخل صفوف المجتمع الإسلامي بين مجموعة يتزعمها أبو بكر الصديق، ومجموعة أخرى معارضة يتزعمها عثمان بن مظعون وخالد بن سعيد بن العاص، وفي ضوء هذا الدافع الأخـــير يرى " وات" أن الهجرة إلى الحبشة لم تكن تنفيذاً لتوجيهات الرسول ﷺ ، بـــل تمـــت بمـــبادرة قام بها المهاجرون أنفسهم، ولكنه في الوقت نفسه

يطرح احتمال أن يكون الرسول هو الذي أمر أصحابه بالهجرة عندما ترامت إلـيه أنباء الانشقاق الذي حدث في صفوفهم . وعندما يوازن (وات) بين هذه الدوافع الأربعة، يرى أن الأخير منها هو أكثرها قبولاً.

وأمـا **مونتجمري وات** فهو كعادته في تصيد الشاذ والضعيف من الأخبار ، إذ أفسـح لقصـة الغرانيق تسع صفحات لإثبات صحة الواقعة فذكر: "تلا محمد الآيـات الشـيطانية باعتبارها جزءا من القرآن، إذ ليس من المتصور أن تكون القصـة من تأليف المسلمين أو غير المسلمين. وإن انزعاج محمد حينما علم بأن الآيـات الشيطانية ليست جزءا من القرآن يدل على أنه تلاها . وإن عبادة محمد بمكـة لا تخـتلف عـن عبادة العرب في نخلة والطائف. ولقد كان توحيد محمد غامضـاً ولا شـك أنه يعد اللات والعزى ومناة كائنات سماوية أقل من الله، كما اعترفـت الـيهودية والمسـيحية بوجود ملائكة، ويتحدث عنها القرآن في الفترة الأخيرة المكية باسم الجن، ولهذا فمن غير المستبعد أن يكون محمد قد تلا الآيات الشـيطانية، ولقد علق أبو أحيحة سعيد بن العاص على الواقعة قائلاً: "At last Ibn Abi Kabsha has spoken good of our Goddesses" كما أن محمداً قد عانى من إغراء التسوية طويلاً.(٥٠)

وربمـا لا نشغل أنفسنا بالرد على دوافعه المتهافتة لما هو واضح من عدم منطقيتها وطبيعة الأحداث وواقع المسلمين عندئذ . وإنما يبقى الدافع الأخير الذي يعـده " وات" أكـثر الدوافـع قـبولاً ، وهو وجود خلافات حادة في الرأي بين مجموعـة أبي بكر، ومجموعة عثمان بن مظعون. والحق أن هذا الدافع هو أكثر الدوافـع التـي طـرحها " وات" تهافـتاً" ، وأشدها إمعاناً في الخيال . فليس في مصـادرنا مـا يشـير إلـى انقسام الرعيل الأول من السابقين إلى الإسلام إلى مجموعتيـن فضـلاً عـن وجود خلافات حادة بينهما، وكيف لنا أن نتصور أن السـابقين الأوليـن سمحوا لأنفسهم أن يتمزقوا في وقت كان فيه مشركو قريش يقعدون لهم كل مرصد ليصدوهم عن سبيل الله؟! . لقد كانت معركة المسلمين مع

المشـــركين علـــى حـــد تعبـــير أحـــد الباحثين[٥١] – معركة حياة أو موت، ومن المســـتحيل أن يـــتطوع بعض المسلمين في تلك الظروف ليعينوا المشركين على أنفسهم بتمزقهم هذا.

وفـــي إطار هذا المنهج ذاته كتب **مونتجمري وات** نفسه كلاماً محقوراً فيما يـــتعلق بتحنث النبي ﷺ في غار حراء، حيث ذكر أن محمداً كان يذهب إلى غار حراء لا ليتعبد، كما هو معروف– ولكن للاصطياف . معللاً ذلك بأن أغنياء مكة كـــانوا يذهبون إلى الطائف هرباً من حرها، أما هو فلم يكن في وسعه مجاراتهم لفقره، ولذلك كان يذهب إلى غار حراء ليصطاف ... كما أمعن هو وسورديل في نســـج أباطـــيلهم ليذكر في موطن آخر، أن محمداً ﷺ ترك العمل بالتجارة وبقية الأعمـــال الأخرى، وبدأ الانصراف إلى العبادة، اعتماداً على ثروة السيدة خديجة زوجته.

ونحن نقول : إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يعتمد النبي ﷺ على هذه الثروة فـــي تدبير مصيف له في الطائف وربما في جزر الكناري.. لاشك أن المستشرق مونـــتجري وات يفسر اتجاه النبي ﷺ لاستقبال الوحي الإلهي بروح العصر الذي يعيشـــه وات، وفـــي ذهـــنه رحلات المصطافين، وكيف يعدون لها وينفقون في سبيلها، أو أنه يفسر هذا الحدث كما يقول د. عبد العظيم الديب[٥٢]" وفى ذهنه قمم الجـــبال المعشوشبة التي يكسوها الجليد، ولم يكلف نفسه، بل لم يستطع، أن يدرك واقـــع المجتمع المكي آنذاك، بل واقع المناخ في مكة، والفرق بين درجة الحرارة فـــي شعاب مكة ورأس جبل حراء. وهل – حقاً– تنخفض الحرارة في حراء عند الغار – وهو مازال موجوداً الآن – انخفاضاً يجعل محمداً يلجأ إليه؟ لم يذكر أحد ممـــن كتبوا عن مكة وأهلها آنذاك أن الفقراء (مع الانتباه إلى التناقض الذي وقع فـــيه عندما أشار إلى استعانته بثروة خديجة) كانوا يصطافون بالجبال، والأغنياء يصطافون بالطائف.

وحسبنا أن نورد نقداً لقصة الغرانيق حيث نقد القاضي عياض هذه الواقعة نقداً موضوعياً أرى من المفيد نقل خلاصته. فبعد أن أورد الواقعة رد عليها: "فأعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشاكل هذا الحديث مأخذين أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه. أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .. لقد ابتلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول إنه كان في الصلاة. وآخر يقول قالها في ناد قومه حيث أنزلت عليه السورة. وآخر يقول قالها وقد أصابته سنة. وآخر يقول بل حدث بها نفسه فسها. وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسانه. إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ومن حكيت الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب . وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة ، والمرفوع فيها حديث شعبة عن أبي بشر بن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة. قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا. ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه من وقوع الشك فيه. هذا توهينه من جهة النقل، فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة. أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسور عليه الشيطان ، ويشبه عليه القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل، فذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، وهو معصوم من هذا كله.. ووجه ثان هو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا، وذلك أن هذا الكلام لو روى

لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، وما كان النبي ومن بحضرته من صناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. ووجه ثالـث أنـه قـد علم من عادة المنافقين والمشركين وضعفة القلوب نفورهم لأول وهلـة، وتخلـيط العدو على النبي لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماته بهم.. ولو كان ذلك لوجدت بها قريش على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . والوجه الرابع ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت "وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِـدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً " (سورة الإسراء: ٧٣، ٧٤).وهاتان الآيتان تردان الخـبر الذي أوردوه، لأن الله تعالى ذكر إن كادوا ليفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبـته لكـاد يركن إليهم. فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفـتري وثبـته حتى لم يركن إليهم. فكيف يروون أنه زاد في الركون والافتراء مدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ "افتريت على الله وقلت ما لم يقل"[٥٣]

كذلـك فقد اتبع بعض المستشرقين – في كتابة السيرة – **منهج الأثر والتأثر** وهـو المـنهج الذي اتبعه غالبية المستشرقين، حيث تم إفراغ الإسلام من ذاتيته، وذلـك بإحالة السيرة إلى مصادر خارجية هي النصرانية واليهودية والمجوسية، حيـث تـم الاشتباه في الإسلام وتشريعاته ، ومدى تأثره بالأديان الأخرى – كما أسلفنا.

فقد تأثر النبي ﷺ – في رأي – **وات** بأفكار **"ورقة بن نوفل"** النصراني بل إن أفكـار ورقة أثرت في التطورات الإسلامية اللاحقة،وبهجرته ﷺ إلى المدينة فإنـه أخذ ينقل عن اليهودية والنصرانية لصياغة ديانة جديدة هي الإسلام، فنظرة (وات) لا تخرج عن كون الإسلام مجرد تلفيقات يهودية ومسيحية.(يمكن الرجوع إلى النص الإنجليزي في كتابه Mohammed at Meca، ص٥١-٥٢).

ثـــم يردف قائلاً:" لقد وقعت خديجة تحت تأثير ورقة بالتأكيد ، وهذه لفظته: Certainly[٥٤] ولاشـــك أن محمـــداً أخذ من حماسته وآرائه .. ثم يمضي قائلاً: أشـــياء كثـــيرة ممكنة، فمن المحتمل أنه تحدث في المسائل الدينية مع المسيحيين العـــرب أو الأحباش من اليمن والقبائل البدوية المسيحية القادمة إلى مكة للتجارة. وهناك يهود المدينة والأماكن الأخرى. ولاشك أنه تحدث مع ورقة المسيحي ابن عـــم خديجـــة"، ثـــم يعقب قائلاً: ومن المحتمل فيما يبدو أن محمداً حاول صياغة الإسلام على شاكلة الدين الأقدم:

Muhammad appears to have tried to model Islam on the older religion [٥٥]

بـــل لقـــد جـــاول وات جهده إظهار الآثار التي تأثر فيها الإسلام باليهودية والمســـيحية ، فتحدث عن فرض صلاة الظهر مجاراة للعادات اليهودية، وصلاة الجمعـــة، والـــتوجه نحو القدس في الصلاة، وصيام عاشوراء وتحليل طعام أهل الكتاب وزواج الكتابيات. وهذه مجرد نماذج لما ذكره وات عن مدى تأثر الإسلام بالديانات السابقة.

ويـــبدو لـــنا – نحـــن المســـلمين – أن محاولة المستشرقين دراسة الأديان السماوية منفصلة عن بعضها، خلقت في مخيلة المستشرق تساؤلات حول التشابه الـــذي يفســـر إســـلامياً بوحـــدة المنـــبع والغايـــة، بينما تحول ذلك في المنهجية الاستشـــراقية إلـــى أدلة سطو فكري . يعمل المستشرق جاهداً لتوضيحها وتسليط الضـــوء عليها، لإقناع اليهود والنصارى بالثبات على عقيدتهم من جانب ، ومن جانب آخر لإقناع المسلم بالعودة إلى الأصل الذي أخذ عنه الإسلام أفكاره .

إذن فـــإن مـــنهج الأثـــر والتأثر لا يخلو من أهداف تنصيرية ويهودية[٥٦]. وصدق الله العظيم:"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهودُ ولا النَّصَارى حَتَّى تتبع مِلَّتَهُمْ.."

كمــا اتبع **وات** المنهج **العلماني**، وبخاصة في فهمه لبعض وقائع السيرة في الفــترة بيــن مــيلاده ﷺ وزواجه من خديجة رضي الله عنها، مثل حادث شق الصــدر، وقصة بحيرا الراهب، فيرى " أن هناك العديد – على حد تعبيره– من القصص ذات الطابع الديني، يكاد يكون من المتيقن بأنها ليست حقيقية من وجهة نظــر المؤرخ العلماني الواقعية "(٥٧)، كما أنه حينما تحدث عن نبوته فإنه عزاها إلى التخيل الخلاق أي أن النبوة لم تكن اصطفاءً من الله عز وجل لسيدنا محمد " الله أعلم حيث يجعل رسالته" بل هي من إبداع عقلية النبي ﷺ .

- ثــم تجــدر الإشارة إلى المنهج **المادي** الذي أشار **مونتجمري وات** إلى أن المؤرخيــن أكثر إدراكاً للعوامل المادية الكامنة وراء التاريخ،وبأن مؤرخ القرن العشــرين يــريد أن يســأل أســئلة كثيرة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للحركة التي بدأها محمد.

ويعزو وات ظهور الإسلام بأن ذلك كان رداً على مرض العصر الذي سببه الــتطور الــذي انتقل بالعرب من حياة بدوية إلى اقتصاد حضري، ويذكر : " أن الــتوتر الــذي كان يشعر به محمد وبعض معاصريه، يعزى في النهاية وبلا شك إلى هذا التنافر بين سلوك الناس الواعي، والأساس الاقتصادي لحياتهم".

ثم يردف قائلاً: "من المغرى أن نفترض أن القبائل الممثلة في العقبة الأولى كانت مؤلفة من البروليتاريا Proletarian.

ولــم يفــته أن يركــز على العامل الاقتصادي في الغزوات، وهو يرى أن المشــكل الاقتصادي قد واجه النبي ﷺ مع امتداد النظام الاجتماعي والسياسي. " زيــادة الســكان بانقطاع الحروب القبلية، والبحث عن متنفس للطاقات التي كانت تــبذل في الغزوات ، والمحافظة على مستوى المعيشة،والحاجة إلى مصدر جديد للــرزق .. الأســلاب مــن غير المسلمين، الطمع في الغنيمة جاء بالكثيرين إلى المدينة.. حل المشكلة الاقتصادية إذن يتمثل في التوسع".

واسـمحوا لي أن أضيف معلقاً: إذا كان هذا التفكير **المادي الماركسي** يمكن أن يكـون متوقعاً من المستشرقين، الذين يجهلون أهمية الدعوة في نشر الإسلام خارج نطاق المدينة، انطلاقا من عالمية الإسلام.

أما الذي يثير الدهشة والاشمئزاز معاً أن ينجرف بعض الكتاب المسلمين – كما يبدو من اسمه (سيد محمود القمني) – في تيار المادة بصورة أكثر إمعاناً من الماركسيين أنفسهم ، فيما أشار إليه في كتابه "حروب دولة الرسول" ص٦٠) من موقـف الرسـول ﷺ من الأنصار ومبايعتهم له على قتال المشركين، وأنه كان يؤجل الإمالة بالسيف إلى ما بعد، على نحو ما ذكرنا.

ثـم يـردف قـائلاً: " وهنا **نقطة التحول المادية الخطيرة** التي لعبت دوراً عظيماً في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبي ﷺ فـي مكـة ثلاثـة عشر عاماً يدعو دون إجابة العدد الكافي من المستضعفين إلى دعوته، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة والرفاهية إلى الآجل في رغد جنة الخلـد، وهـو مـا ظهر كما لو كان تأجيلاً ميتافيزيقياً لحل قضيتهم وإرجاء رفع الشقاء المادي عن حياتهم الآنية، في مجتمع تجاري مادي بحت.

ولهـذا – كمـا يقـول – عـندما تم الإعلان عن مغانم أحلها الله لرسوله وللمؤمنين من أموال المشركين، أصبح الحل حقيقة مادية دنيوية ملموسة،ومكاسب عينـية ماثلة أمام المستضعفين ، تدعوهم إلى دخول جيش الدولة الجديدة ، وهو الهـدف الذي سيفصح عن نفسه عملياً في المكاسب التي ستحققها الغزوة البدرية لجماعة المسلمين ، لتحول حالهم من الشظف إلى حال آخر، ...".

• **نقـول** : إنـه ليس من المناسب هنا أن نفند مزاعمه التي تبدو فيها الأباطيل واضـحة كالشـمس فـي رابعة النهار،والتي هي –بحق– تكشف عن مزايدات وأغالـيط ، تحـاكى، بقصد أو بغير قصد، بعض افتراءات المستشرقين الذين لا يرقـبون فـي مؤمـن إلا ولا ذمة. وقد ناقشنا ذلك الشئ من التفصيل في كتابنا

"**صفحات من السيرة النبوية**" عند حديثنا عن العقيدة العسكرية عند المسلمين في غزوة بدر، ومنهج الرسول ﷺ في غرس روح الجهاد في نفوس أصحابه.

ويطيب لنا أن نختتم بالإشارة إلى **منهج المستشرقين في الاعتماد على الضعيف والشاذ**، وهو منهج أسرف مونتجمري وات في استخدامه حتى لا تكاد تنجو رواية إسلامية من نفيه لها أو تشككه فيها فأكثر من استخدام عبارات "يصعب تصديق ذلك But this is difficult to belive " وعبارات كثيرة تدعو إلى الشك والنفي.

ويتهم (**وات**) المصادر الإسلامية بأنها كتبت لتمجيد أشخاص بعينهم والذي ينبغي ملاحظته أن (وات) يتشكك فيما هو ثابت ومعلوم ويثبت ما هو مشكوك فيه.

وربما كان من المناسب أن نقول إن بعض كتب السيرة حوت روايات هي – في وجهة نظري – في مسيس الحاجة إلى التمحيص والتدقيق ، وينبغي ألا نتعامل بلا شك مطية سهلة لأمثال هؤلاء المستشرقين . وإن جاز لي أن أذكر مثلاً على ذلك. فإنني أشير على ما حرص المؤرخون على اقتباسه من سيرة ابن هشام تلك المواقف التي أسلفناها وعلى رأسها (**حادثة الغرانيق**).

وعلى كل، فإن كانت البحوث الاستشراقية في دراسة السيرة تعتمد في أساسها على الروايات الضعيفة والشاذة، والتناقضات الموجودة في المصادر القديمة – كابن هشام –الواقدي – ابن سعد – والطبري، فإن الضرورة تقتضي تحقيق هذه المصادر بحيث يتم استبعاد الإسرائيليات والموضوعات منها، والتوفيق بين الروايات المتناقضة فيها.

وأخيرا فلتسمحوا لي أن أتضامن مع بعض الباحثين في قوله(٥٨) : " **إن الاستشراق ما كان ليظهر وينمو لولا عجز المسلمين لأنفسهم ، عن الوصول**

إلـــى العقل الغربي ومحاولة تشكيله وفق النسق المعرفي الإسلامي الصحيح، أو على أسوأ الفروض تحييد موقفه تجاه الإسلام".

لذلك فإن على عاتق أقسام الدراسات الإسلامية بالجامعات يقع العبء الأكبر فـــي التصـــدي لمخططات الاستشراق . وما لم ترتفع أقسام الدراسات الإسلامية وغـــيرها مـــن الأقســـام ذات الصلة بها إلى مستوى التحديات التي تواجه الأمة الإســـلامية، فســـتظل هـــذه الأمة في حالة التبعية والارتهان بالآخرين، وسيظل المستشـــرقون يؤثرون على مجرى التفكير الغربي في تعامله مع الإسلام ذاته من خلال فرض الآليات والمناهج والنسق المعرفي.

وبعـــــــد

فآمل أن أكون قد وفقت في طرح ما أردت من إبراز دور أغلاط المؤرخين في موقف بعض المستشرقين من السيرة النبوية ، ودحض افتراءاتهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المـــــراجع

(١) أحمــد إبراهــيم دياب: منهجية كتابة التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر بين الأصالة الإسلامية والتبعية الغربية ، ص٣٢٧.

(٢) ابــن هشام ، ص ٧٤-٧٥، اليعقوبي: تأريخ اليعقوبي ٢٣ - ٢٤، د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص٦٩.

(٣) د. محمد حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص١٨.

(٤) الســيد محمــد الشــاهد: الاستشــراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين – مجلة الاجتهاد ، عدد (٢٢)، ص١٩٦-١٩٩.

(٥) د. عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب، ص٢١.

(٦) سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم المغازي، وتعني غزوات الرسول وحروبه، ولكــنها تناولــت فــي الحقيقة عصر الرسالة بكامله، وقد قام بها بعض أبناء الصحابة البارزيــن ، من أمثال: أبان بن عثمان بن عفان (ما بين ٩٥-١٠٥ هــ /٧١٣-٧٣٢). وعلــى الرغم من ذلك فإنه لا يوجد بين المؤرخين من نقل أو روى عنه ، في حين أنه يــروى عــنه كتــب الحديث." ويبدو أن أبان بن عثمان يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث ودراسة المغازي" ومن هؤلاء – أيضاً- عروة بن الزبير (ث ٩٤هــ/ ٧١٢م).

(٧) نشأة علم التاريخ ، ص٣٢.

(٨) تاريخ بغداد ٢١٥/١، د. سليمان بن حمد العودة: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن اسحق ، ص٣٤.، ط أولى، الرياض، ٢٠٠٢م.

(٩) ابــن حــبَّان: الــثقات ٣٨١/٧-٣٨٣، ط. حيدر آباد الدكن، سنة ١٤٠١هــ، العقيلي: الضعفاء الكبير ٢٤١٤، تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي ، ط. بيروت ، ١٩٨٤م.

(١٠) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١٩٢/٧، البغدادي: تاريخ بغداد ٢٨٨/١، د. سليمان العودة: مرجع سابق، ص٤٧.

(١١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٧/٧، تذكرة الحفاظ ٧٣/١، د. سليمان العودة: السابق، ص٥٢.

(١٢) الذهبي: ميزان الاعتدال ٤٦٩/٣، سير أعلام النبلاء، ١١٥/٦، ١١٦، ٥٢/٧.

(١٣) د. سليمان العودة : السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحق، دراسة مقارنة في العهد المكي، ص٥٧.

(١٤) أنظر مختصر سيرة ابن هشام، جـ١/ص٨، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٣م.

(١٥) مرجع سابق، ص٨٩، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٤٦/٩ .

(١٦) د. سليمان العودة، سابق، ص٩٠.

(١٧) علي أدهم: بعض مؤرخي الإسلام ص٣٣، مقدمة تاريخ الطبري جـ١/٥-٧ وراجع ما كتبه د. عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ص٤٧٧-٤٧٩.

(١٨) البخاري: ٣٢/٢: الكسوف: باب سجدة النجم، وفي تفسير سورة النجم ٥٢/٦، ومسلم ٤٠٥/١ كتاب المساجد، باب سجود التلاوة.

(١٩) وفي بعض نسخ : مصدقون (أنظر سهيل زكار محقق السير والمغازي لابن اسحق، ص١٧٧) ود. سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن اسحق ، ٢٨٦-٢٨٧.

(٢٠) د. سليمان العودة، مرجع سابق، ص٢٨٧.

(٢١) تفسير الطبري ١٣١/١٧-١٣٢، وتاريخ الطبري ٣٣٨/٢.

(٢٢) د. سليمان العودة: مرجع سابق، ص٢٨٧، وأنظر أيضاً: "تصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق" للشيخ ناصر الدين الألباني، ص١١، ١٢، ط. المكتب الإسلامي.

(٢٣) الألباني: المرجع السابق، ص٤-١٨، وقد تكلم الألباني عن هذه الروايات واحدة تلو الأخرى.

(٢٤) د. إبراهيم علي شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص٩، ط الثانية، القاهرة.

(٢٥) القاهرة. أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، ص١٠.

(٢٦) تجدر الإشارة إلى أن العلماء الذين اضطلعوا بإعداد كتاب " مختصر سيرة ابن هشام" ، الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بمصر، قد حرصوا على تنقية هذا المختصر من إيراد هذه الواقعة. (انظر المختصر جـ١/س٢٠٥، وما بعدها ط ، سنة ١٩٩٣م)..

(٢٧) صحيح البخاري (فتح الباري ٤/٤٧٥-٤٧٦، ٢/٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٧)، وصحيح مسلم ١/٤٠٥، والألباني : نصب المجانيق وابن هشام: السيرة النبوية ٢/٣٧٢-٣٧٤. ثم أنظر د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، جـ١، ص١٧١.

(٢٨) د. العمري : المرجع السابق، جـ١، ص١٧٢، Watt: Mohammad Propht and States man p.61. وستأتي الإشارة إليه.

(٢٩) نقلها عن ابن اسحق، كل من : ابن هشام (السيرة جـ١/١٩٦، ١٩٧) الطبري: السيرة النبوية: ص٨٨-٨٩، تحقيق: جمال حمدان، ط. دار المصرية اللبنانية ١٩٩٧م، ابن الجوزي: المنتظم ، ج٣، ٤٥-٤٦، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخر، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣٠) د. إبراهيم على محمد أحمد: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١٣٧.

(٣١) مختصر سيرة ابن هشام ١/٣٠١.

(٣٢) الطبري: السيرة النبوية ، ص٨٩، ابن الجوزي: المنتظم جـ ٣/ص٥١، وأشار إلى ذلك د. سليمان العودة في (السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق ص٣٦٧). وأنظر (أصلان عبد السلام: قراءة نقدية في كتب السيرة ، س٥٧). د. مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٢٦٧، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: " .. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولي أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما، حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل – وهو لبن منحتهما ورضيفيهما". هذا ما رواه البخاري في صحيحه، كتاب " فصائل الصحابة " باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. أنظر الخضري: الوفاء بأحوال المصطفى ، جـ١ /ص٢٣٦)، د. إبراهيم على محمد أحمد : في السيرة النبوية " قراءة لجوانب الجذور والحماية" ص١٣٦.

(٣٣) كانت أسماء حاملاً بعبد الله بن الزبير الذي ولد في أيام الهجرة الأولى، فكان أول مولود يولد في المدينة.

(٣٤) مقدمة ابن خلدون ، ص٩، ط. المطبعة الشرقية بمصر، ثم أنظر (على أدهم: بعض مؤرخي الإسلام ، ص٣٣، ٣٤).

(٣٥) لا يمكن أن ننكر أن هناك بعض المستشرقين كانوا منصفين – إلى حد كبير – وقدموا للتراث الإسلامي خدمات جليلة.

(٣٦) د. أحمد أبو اليزيد: السيرة النبوية (دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن) ص٢٢، ط. بيروت، ٢٠٠٤م.

(٣٧) أنور الجندي: أخطاء المنهج الغربي الوافد، ص٣٢١.

(٣٨) أنور الجندي: مرجع سابق، ص٤٢٢.

(٣٩) والأسقاط (Projection) حيلة لا شعورية تتلخص في أن ينسب الإنسان عيوبه ونقائصه ، ورغائبه المستكرهة، ومخاوفه المكبوتة التي لا يعترف بها، إلى غيره من الناس أو الأشياء أو الأقدار أو سوء الطالع.. وذلك تنزيهاً لنفسه، وتخففاً مما يشعر به من القلق أو الخجل أو النقص أو الذنب.. فالإسقاط هو العملية النفسية التي نخلع بها تصوراتنا ورغائبنا وعواطفا على الآخرين، أو على موضوع من الموضوعات، وهذا ما ينطق تماماً على الاستشراق. أنظر: د. أحمد عزت راجح (أصول علم النفس) ط. الثامنة الإسكندرية ، ١٩٧٠م، د. شوقي أبو خليل: أضواء على مواقف المستشرقين ص ١٠-١١، ط. طرابلس/لبنيا ١٩٩١م، د. شوقي أبو خليل الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين.

(٤٠) البحث عن الدين الحقيقي: للمنسنيور كولي، الصادر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي، د. شوقي أبو خليل: أضواء على مواقف المستشرقين ص١٦٥، الإسقاط: ص١٤٧.

(٤١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٧٨.

(٤٢) ص٦٠، ط. مدبولي، مصر ١٩٩٦.

(٤٣) أنظر: إدوارد سعيد: الاستشراق ص١٦٨، د. شوقي أبو خليل : أضواء. ص١٦٦.

(٤٤) هذه ترجمة د. أحمد شلبي، أنظر : صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين، ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع، ص١٨، ط . مكتبة النهضة العربية ١٩٩٧م، نقلا عن Richard Nixon: Seize th Moment وهو الكتاب الذي نشره نيكسون بعنوان (انتهزوا الفرصة).

(٤٥) عبد الله محمد الأمين النعيم: الاستشراق في السيرة ، ص٢٧.

(٤٦) الفيومـــي: الاستشراق رسالة استعمار، ص ٣٣٧-٣٥٩، (El Islam modo de vida) ص ١٢٢.

(٤٧) الإسلام Islamo logia ص ٥٥٣-٥٥٤، د. عبد الله جمال الدين: نظام الدولة في الإسلامي ، النظام السياسي، ص٣٢٦،سنة ١٩٩٨م.

(٤٨) د. عــبد الحلــيم محمود: أوربا والإسلام، ولمعرفة صورة النبي ومصادرها لدى الاستشراق، أنظر د. الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار ص٣٦١-٣٧٢.

(٤٩) د. أحمد أبو زيد: السيرة النبوية " دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية.." ص٩٢. ط سنة ٢٠٠٤م.

(٥٠) Muhammad at Macca, pp. 103 - 108 ، د. عبد الله النعيم: مرجع سابق، ص٩٧.

(٥١) د. عــبد الرحمــن سالم : الرسول حياته وتطور الدعوة الإسلامية، ط. دار الفكر ١٩٩٩م، ص٦٧.

(٥٢) المــنهج فــي كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، ص١٠١، د. يسرى زيدان قراءة في السيرة ، ص٢٠٥.

(٥٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، م ١، ج٢، ص١٢٤-١٣٢.

(٥٤) Muhmmadat Macca 315-31.

(٥٥) محمد في المدينة M. at Modina .p . 198

(٥٦) عبد الله محمد الأمين: سابق، ص ٣٩.

(٥٧) محمد في مكة ، ص٣٣، د. عبد الله الأمين ، السابق، ص٣٩.

(٥٨) د. عبد الله محمد الأمين، ص٢٩٢.